الجاسوس

الجاسوس

سام شيبارد

ترجمة
آية إلهام مستور

قنديل | Qindeel

Spy of the First Person

Sam Shepard

الجاسوس

سام شيبارد

ترجمة: آية إلهام مستور

© 2019 Qindeel Printing, Publishing & Distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

Copyright © 2017 by The Estate of Sam Shepard

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2019

في ذكرى سام

يـودّ أبنـاء سـام «هانـا» و«وكـر» و«جيسـي»، أن يعرِّفـوا بحيـاة والدهـم، ويشـيدوا بعملـه الـدؤوب، والجهـد الهائـل الـذي بذله لاستكمال مؤلَّفـه الأخيـر.

1

كنتُ ألمحه من مسافة بعيدة، من خلال الطريق المقابل، يصعب معرفة كم يبلغ من العمر، بسبب الظلال الملتفة للزجاج المحيط بالشرفة. يبدو لونه أرغوانياً، وكأنه حارس وحيد... أو لصّ ملثّم. لا أدري ماذا يحمي! إنه يجلس داخل شرفة تحيط بها نوافذ زجاجية مغلقة. كان الجو صيفياً في الخارج، وقباع الخنازير وتغريدات الطيور وطنين الحشرات تملأ المكان.. ومع ذلك، يصعب جداً معرفة كم يبلغ من العمر.

كان يرتدي قبعة بيسبول وسروال جينز متّسخاً وسترة قديمة. يبدو لي أنه يجلس

على كرسي هزّاز، أُخذ من كراكر بارل، إذ لا تزال السلسلة الأمنية محطمة حول قدمه، أعتقد من هنا أنّ لونه أحمر أو أسود، بعض هذه الألوان، تشير إلى قوات المارينز، وبعضها إلى قوات الجيش، والأخرى إلى القوات الجوية، حسب مدى ترسّخ الوطنية لدى الفرد. إنه يكتفي بالجلوس على الكرسي الهزاز طوال اليوم، يقضيه في رواية قصص مختلفة عن التاريخ والمعارك.

يأتي الناس ويلمحونه جالساً هناك في الشرفة، يتمتم مع نفسه، يجلسون بدورهم، يبدو أنهم يعرفونه، أو يجدون صعوبة في التعرّف إليه، كما هناك من يأتي ويمضي... منهم فتاة وشاب طويل القامة قد يكونان ابنيه، وامرأتان تبدوان شقيقتيه، تأتيان وتذهبان من وسط المنزل، ولكن من الصعب جداً، معرفة كم هو كبير وسط المنزل.

تغرّد طيور أبو الحناء بصفة دائمة، بغرض الحفاظ على أعشاشها وبيضها ذي اللون الأزرق الشاحب من الغربان، ومن الطيور السوداء، كيلا تهاجمها وتهدّدها. صغار أبو الحناء ذات الصدور الحمراء، تزقزق بشدّة، محاوِلةً إخافة الغربان... يا لها من طيور سيئة!

2

إنّه مكان بعيد جداً وغير مأهول: الصحراء المرسومة... أرض الأباتشي...أرض ساجوار!

لقد طلبوا مني جميع أنواع تحاليل الدم: الكريات البيضاء والحمراء، ثم سحبوا السائل من الحبل الشوكي، وأجروا عليه تحليلاً. خضعتُ للتصوير بالرنين المغناطيسي، حيث يمكن استكشاف الجسد كله، لمعرفة ما إذا كان هناك أي شلل في العظام أو العضلات. مقاطع عرضية، شرائح عرضية، أشعة سينية، كانت فعلاً صوراً شبحية! دقّقوا في الخلل، ونظروا في العديد من الأمور، ولم يتمكنوا

مـن التوصـل إلـى إجابـة، حتّـى جـاء رجـلٌ، أعتقـد أنـه جـرّاح أعصـاب، كان شـعره أسـود، يرتـدي سـترة بيضـاء ونظّـارة، يحمـل جهـاز الصدمـات الكهربائيـة الاستكشـافي، مُرفَـق بقضيـب فـولاذي: وضعـه فـي ذراعـيّ، وشـغّل التيـار الكهربائـي، وشـعرتُ بهـذه الصدمـات. إنـه الشـخص الـذي أكّـد أن هنـاك خلـلاً مـا. قلـتُ لـه: حسـناً، أنـا أعـرف أنّ هنـاك شـيئاً مـا ليـس علـى مـا يـرام... لمـاذا أنـا هنـا؟ ردّت علـيّ نظراتـه الفارغـة.

فـي الصبـاح، كنـتُ فـي مطعـم مكسـيكي، أتنـاول وجبة الإفطـار المكونة من الإنتشـلاداس، الجبـن والبيـض والفلفـل الأخضـر.

3

كانت البساتين تجتاح الأفق، كصور البطاقات البريدية. بساتين البرتقال والزيتون والعنب والأفوكادو والليمون والكمثرى. بساتين من كل نوع، تتطابق مع جنسية الشخص الذي جلبها إلى هنا، فعلى سبيل المثال، جلب الإيطاليون والإسباني البرتقال، وجلب المكسيكيون الأفوكادو واليوسفي والعنب والأنواع المشابهة من الفواكه. وأحضر الإيطاليون الزيتون. من خلال بادوا، كانت الأوراق الفضية المكنوسة ذات أطراف كثيرة العقد، كالبحّارة القدامى. وكانت بساتين الزيتون بلحائها الأسود، وأوراقها الفضية، تملأ المكان.

على امتداد الطريق نحو قرمة الشجرة، تظهر بساتين اللوز الرائعة، كخط ياباني، سيتغير لونها، وتصبح ناصعة البياض بقدوم فصل الربيع.

أمّا نهر كولورادو؛ فهو يخترق الحدود بين كاليفورنيا وأريزونا، في حين تتربع على صحراء إنديو، بساتين شجر الجوز وأشجار النخيل الشامخة، ويبلغ بعضها أحياناً 100 قدم أو أكثر.

في سنة 1953، كان الرجال البيض يرتدون ملابسهم كالعرب، يركبون الإبل، ويستعرضون ذهاباً وإياباً في الشارع، وهم يرتدون قبعات شراينر، ويعتريهم شيء من الفخر العربي. إنهم ينحدرون من الغرب الأوسط، وكانوا من مالكي محلّات الحلاقة والصيدليات، يرتدون نظارات سميكة، ولم يسبق لهم أن رأوا الصحراء من قبل. اعتدتُ الجلوس في

المقعد الخلفي لسيارة كرايسلر، على مقربة من نهر كولورادو، برفقة خالة أمي، الويلزية، ذات الشعر الأزرق. كان زوجها ثريّاً إلى حدّ ما، لكنه توفيّ في تلك الفترة. كان يُدعى تشارلي أبتون، ينحدر من مدينة ليفربول، كان لديه ميل لشرب الويسكي، ويهوى المشاجرات بالحانة، إذ تعرضت أذنه للعضّ في واحدة منها، على طريقة مايك تايسون، تلقّى عضّة في نصف الأذن بالتحديد، بحيث كان نصف يظهر على جانب واحد من وجهه. على أيّة حال، كان ثرياً بما يكفي لشراء سيارة كرايسلر في السوق السوداء خلال الحرب، سيارة ثقيلة وكبيرة في غاية الجمال، يُنصح بقيادتها في الطريق السريع. كانت لديه مقاعد منقوشة باللون الأحمر، كنت أجلس بمفردي في بحر من النقوش، وكان هناك مسند مطوي مخصّص للذراع في منتصف المقعد الخلفي،

وخلف المقاعد الأمامية، وكان هناك نوع من الحبل الذي يمرّ عبره، أظن لتثبيت نفسك عند دخول السيارة والخروج منها، في حالة ما إذا كنت كبيراً في السنّ.

لم أكن قد كبرت آنذاك، ربما كنت أبلغ من العمر ثماني أو تسع سنوات، وكان شعر خالة أمي، غريس، أزرق اللون. كانت تقودني إلى إنديو بمناسبة مهرجان التمر، حيث تهزّ النخيل، ونشاهد الرجال البيض يتظاهرون بأنهم عرب، وهم يتجولون على الإبل ذهاباً وإياباً في الحر. من قمم أشجار النخيل، التي يبلغ طولها 100 قدم، يمكن أن ترى الببغاوات التي تطلّ عليها بمختلف ألوانها، الحمراء والسوداء والخضراء... والنخيل تُهز، لك أن تتخيّل ذلك.

هناك مكان يقع على امتداد الطريق، لطالما جعلني أشعر بالسلام، ولا أعرف

السبب. خلفه رصيف الميناء، الذي يؤدي إلى المحيط الهادئ. رصيف يئنّ ويشتكي ويصدر أحياناً خشخشة وقعقعة، ويرتطم عند عبور السيارات، كانت الرمال تغطيه، وتتطاير من على الشاطئ. وكان راكبو الأمواج يبلغون من العمر اثني عشر عاماً أو ربما ثلاثة عشر، يحملون ألواحهم تحت أذرعهم، وهم عائدون إلى المنزل مع غروب الشمس، يرتدون تبابين من نوع برمودا، وشعرهم الزيتي مغطّى بالرمل، تتبعهم كلاب صغيرة مجهولة السلالة، في حين تتشبث البجعات بالرصيف، وتنقضّ النوارس على سطح البحر لتصطاد الأسماك، وتأخذ طيور التيطوي في التغريد والرقص، فيما تغطّي المياه الطحالب البحرية.

بعيداً جدّاً هناك، يستيقظ شخصان من الشاطئ في ثياب الاستحمام، يطويان منشفة برتقالية ضخمة، وتتدافع السناجب من أجل

الاختبـاء أثنـاء ذلـك، تتربّـع الشـمس علـى المحيـط الهـادئ.

يفتـح النـاس سـياراتهم عـن بعـد، يضغطـون علـى الأزرار، وتنطلـق سـياراتهم، مـا يعطـي مزيجـاً مـن الضجيـج، نوعـاً مـن النغميـة تشـبه الأصـوات فـي الفيلـم «كلـوز إنكاونتـرز أوف ذا ثـارد كايـند Close Encounters of the Third Kind». يركـب النـاس سـياراتهم، ويخرجـون من موقـف السـيارات تحـت أشـجار النخيـل، مـروراً بالمـروج، أمـام غـرف الجلـوس الزجاجيـة، التـي تشـتغل فيهـا النسـاء الشـقراوات، ويقدِّمـن وجبـات الكركنـد. قـام أحدهـم بإيقـاف جـزازة العشـب، فـي حيـن يجلـس شـخص مـا فـي محطـة الحافـلات، وأحدهـم ينتظـر شـخصاً مـا، فيمـا تتوالـى أضـواء إشـارات المـرور.

لقـد بـدؤوا بتقديـم العشـاء، إنهـم يقدّمـون قـدوراً يتصاعـد منهـا البخـار، ربمـا كانـت

وجبات سرطان البحر، أو سمك القدّ أو شيئاً من هذا القبيل، تبدو الصحون مليئة بالأرز الساخن. تعود الناس إلى بيوتها، أحدهم ينتظر شخصاً ما، وآخر يترقب قدوم الحافلة، الجميع ينتظر شخصاً ما لإخراجه من هناك... ويأخذه بعيداً... بعيداً جدّاً.

في الأسفل، رغم أنّ الظلام لم ينزل ستاره كليّاً، يشرع البعض في السباحة، والكهول في احتساء النبيذ، والنساء في تدخين السجائر. تُقرع الأجراس، وتتأرجح القوارب ذهاباً وإياباً، بعضها يُفرِغ الشباك مليئة بالأخطبوطات التي يعجّ بها رصيف الميناء... ويبقى شخص ما ينتظر...

لكن داخل هذه الغرفة، تُقدّم الأطباق مليئة بالمحار وبالكركند، وأخرى تحوي السمك والأرز، وتُصبّ الجعّة في كؤوس ضخمة. أما باتجاه النوافذ، هناك شخص ما

يعلِّق على السباق، ما زلت أتذكر كيف كان يصرخ: «الحصان !... لقد تمّ إطلاق النار على الحصان القائد!... ووقع الفارس على الأرض! هكذا تمضي قائمة الاحتمالات والمراهنين».

4

عادة، أنا لست شخصاً مهووساً، لا أترقب حدوث أمور غير متوقعة، لكن لديّ إحساس أن أحدهم يراقبني (أنا لا أستطيع أن أنقل هذا الشعور لأحد). أحدهم يريد معرفة شيء ما عني، شيء أجهله. أشعر به يقترب أكثر فأكثر... وأسمع أنفاسه، يبدو من رائحة أنفاسه أنه ذكر. لا أدري ماذا يريد بالضبط؟، لقد أصبح فضوليّاً أكثر بخصوص ذهابي وإيابي! يبدو أنه يريد أن يعرف شيئاً عن أصْلي.

5

من أين أتينا بالضبط ؟ هل كانت الصحراء في بداية تكوين الأرض؟، هل كانت غابة أم جبلاً... أو ربّما براري؟ من أين نأتي فعلاً؟ هل من نهر كولورادو؟

إذا كنت مسافراً في بلد أجنبي، وفقدت كلابك وسيارتك وثيابك، وكذلك الحاشية التي ثبتتها أمك على ياقة قميصك، وكنت تقف عارياً، وجاءك شخص ما وسألك: إلى أيّ عرق تنتمي؟ كيف ستجيبه يا ترى؟ هل ستسأل أحد أجدادك، الذي شاءت الصدف أن يكون برتغاليّاً؟ أو سوف تسأل الأرمادا؟

يبدو أنّ أحدهم قد نسي...

6

لا أخفي عليك، لا أدري من أين أتى، لقد اكتشفته مصادفة. كان ينحني إلى الخلف لاهثاً، سبق لي أن كنت جالساً هنا بالطريقة ذاتها التي كان يجلس بها الآن، أعبث بإبهامي، وأنظر عبر الطريق، ورأيت هذا الكرسي يتأرجح، ثم رأيت شخصاً يجلس عليه. لقد كان هناك، وظهر للتوّ، لا أعرف ما إذا كان قد استأجر المنزل أو اشتراه، ثم دعا أفراده هناك، أو إذا كان هناك بالفعل، وذهب لزيارتهم، أو ربّما أجّر البيت لفترة قصيرة. لا علم بالضبط، أحياناً يظهر الناس هكذا من مكان مجهول، ثم يختلفون بسرعة فائقة تماماً، كما يتم إخراج صورة إشعاعية من حوض كيمياوي.

7

لست متأكداً مما قد يراه الآن، ولا حتى أنا! فالجو ملبّد وضبابي إلى حدّ ما. هل كان يتحدث مع نفسه، أو مع شخص آخر، أو ما الذي يفعله بالضبط؟ تصمت الطيور عن التغريد، غيوم بيضاء منفوشة تملأ المكان، والجو لا يزال ملبّداً. يبدو أنّ الأشجار تعود إلى الحياة، في حين، زوج من أحذية التنس الحمراء القديمة معلّقة هناك، بأربطتها الممزقة التي تتدلّى من الأسلاك الهاتفية.

إنه يقضي يومه في تناول الجبن والمقرمشات، وفي ارتشاف الشاي المثلج.

لكـن لاحظـت أنـه يعانـي مـن مشـكلة علـى مسـتوى يديـه وذراعيـه، إنـه لا يحرّكهمـا كثيـراً، بـل يسـتخدم سـاقيه وركبتيـه وفخذيـه، لجلـب ذراعيـه ويديـه إلـى وجهـه، ليتمكـن مـن أكل الجبـن والمقرمشـات. يبـدو أنـه مضطـر إلـى الذهـاب إلـى الحمـام، أو إلـى مـكان مـا بشـكل دوري، كان يلـوِّح عندمـا يقـف، يبـدو أنـه علـى وشـك السـقوط! ربّمـا يكـون هـو مـن وضـع علامـة المعاقيـن التـي تتدلـى مـن المـرآة الخلفيـة لسـيارته فـي الممـر. كان يلـوِّح بشـدة، ويشـير بيـده أنـه قـد يسـقط، ويدعـو أحيانـاً أحـد أفـراد عائلتـه (واحـد مـن أبنائـه أو بناتـه أو أحـد أقربائـه كشـقيقاته)، يشـير إليهـم، فيتوجهـون نحـو الشـرفة لرؤيتـه. وبعبـارة أخـرى، يقـف ثـم يلـوِّح بيـده، ويكـرّر الشـيء ذاتـه، يتنـاول الجبـن والمقرمشـات والشـاي المثلـج، ثـم يطالـع، بعدهـا يناديهـم، فيهرعـون لمسـاعدته. يأخذونـه

مـن ذراعـه إلـى داخـل المنـزل، عبـر البـاب الزجاجي، إلى منزل مظلـم، ويختفي. لا يوجـد مـا يـدلّ علـى مـدى اتّسـاع البيـت.

يعـود مـع الشـخص نفسـه الـذي كان يمسـك بيـده، والآن، هـم يحملونـه برفـق لرفعـه أو إنزاله، يغلقـون سـحّاب سـرواله، بعـد أن قضـى حاجتـه، ويسـاعدونه ليجلـس علـى كرسـيه الهـزاز... وإن كان فـي لحظـة مـا، يـكاد يسـقط مـن التعـب. فـي الأخيـر، يجلـس لاهثـاً ومتمتمـاً: «كلمـا زاد عجـزي، صـرتُ أكثـر انعـزالاً!».

هـل رأيـت كل هـذا؟ الجـو لا يـزال ضبابيـاً... وقـد تسـأل نفسـك لمـاذا... لمـاذا أنـا مهتـم بهـذا الشـكل؟ هـل هـو فضـول محـض، أم لـديّ دافـع آخـر؟ هـل تـمّ مثـلاً اسـتئجاري مـن قبـل وكالـة المباحـث والتحقيـق. أم أنّ كل شـيء يحـدث عـن طريـق الصدفـة؟

8

لمـاذا ينظـر إلـيّ؟ لا أسـتطيع فهـم ذلـك... يبـدو أنّ لا اليديـن ولا الذراعيـن ولا السـاقين تتحـرّك الآن!... لا شـيء!

فـي الحقيقـة أنـا أكـذب! أنـا فـي انتظـار أحـد مـا ليعثـر علـيّ، أسـتطيع أن أشـمّه علـى مقربـة منـي! ولا أفعـل شـيئاً... سـوى النظـر إلـى السـماء.

9

أعتقد أنه يُدعى الغروب، ذلك التوقيت المفضل لديّ طيلة اليوم، التوقيت الذي طالما تغنّى به الناس، تلك اللحظة الساحرة من اليوم، عندما يتحول آخر المساء إلى ليل. لقد تسللت عبر الطريق، أملاً في اختلاس نظرة خاطفة له قبل أن يستهل حديثاً مع أيّ شخص، مرئي كان أو غير مرئي. عبرتُ الطريق، وكانت السماء تمطر لمدة ثلاثة أيام على التوالي... السماء تمطر، والمياه في كل مكان، أقصد مياه المجاري طبعاً. وصلتُ إلى الجانب الآخر عبر السيارات المتوقفة باختلاف أنواعها: سيارات تويوتا وشفيس، وفورد، وزومباياس، حتى وصلتُ إلى

السياج. لم يكن سياجاً من زهر الكاميليا أو من زهر الكوبيا، أو أي شيء من هذا القبيل، كان نوعاً آخر غير محدّد، تبرعمت منه زهور بيضاء. أستطيع تمييز شكلها من بين سياج الشجيرات، لكنني لم أكن متأكداً. كان بإمكاني رؤية شيء ما من بين ذلك كله، بَيْد أنني لما أكن متأكداً... لا علينا...سأكتشف ذلك لاحقاً!

ذلك هو الوقت اللاحق! أنت لا تعرف ماذا سيجري في ما بعد، ولا تدري كيف ستجتمع كلّ النهايات التعيسة معاً...

قطعاً! سيحدث أمر ما، لكنك لا تعرف ما هو، مثلاً: أنا الآن تقريب في الخارج، هنا، مع الطيور والحشرات، ولكن قريب بما يكفي من الجانب الآخر من الطريق... لن تعود الغيوم والسماء الكبيرة والأزهار وتغريدات الطيور كما كانت عليه من قبل.

10

يبدو وكأنه بالأمس فقط، كنتُ أنا وأنتَ نلعب كرة البوتشي، كنتَ شابّاً أيامها، وكانت كرة البوتشي رياضة يمارسها من يفوتونك سنّاً. كم كنتَ تحبّ صوت كرة الحديد التي تصدره حين تصطدم بالرمل.

وضعنا قهوتنا على الدرابزين، لقد اعتدنا اللعب في مطعم قديم، كان يحتوي على ملعب رملي، وتحوّل في ما بعد إلى صومعة أو مخزن للخوخ... لا أدري!

كان المطعم مقسّماً إلى جزأين: جزء في الداخل والآخر في الخارج. لقد جعلوه يبدو

إلـى حـدّ مـا إيطاليـاً، إذ كان الديكـور قديمـاً نوعـاً مـا بـه، تميّـزه ألـوان مختلفـة، ومصابيـح معلقـة، وجـدران مـن طـوب وشـموع تتقاطـر. يقـع المطعـم تحديـداً فـي بلـدة صغيـرة باتجـاه الشـمال، حيـث يقـف المهاجـرون فـي الزوايـا باحثيـن عـن عمـل.

يبـدو أنهـم لا يهتمـون كثيـراً، إذا مـا كانـوا سـيحصلون علـى عمـل أو لا، كانـوا يلتقـون كلّ صبـاح، ليـروا بعضهـم، وليتبادلـوا أطـراف الحديـث، كلّ هـؤلاء المهاجريـن يتحدثـون لغتهـم الخاصـة، بغيـة التواصـل فـي مـا بينهـم. أفهـم بشـكل أفضـل الآن، بـل أشـعر أنّنـي أسـتطيع رؤيتهـم.

أتذكـر أنّـه كان هنـاك مقهـى تديـره امـرأة شـابة مـن بيركلـي، كنـتَ علـى علاقـة بهـا، كانـت تعـدّ كل أنـواع القهـوة القادمـة مـن البرازيـل، مـن

أفريقيا، ومن أعماق قلب المكسيك القديمة. أشعر وكأن الأمر حدث بالأمس فقط.

نمتُ يومها في غرفة الغسيل على الأرضية الإسمنتية الزرقاء، قضيتُ طوال الليل في الاستماع إلى صوت السيارات تذهب وتمضي إلى كاليستوغا... أعتقد إلى كاليستوغا. إلى أين يتوجّه الناس وهم في إجازة؟ في الواقع، ليس لديهم ما يقومون به.

أمّا عنكَ فقد نمتَ في السقيفة التي بنيتها، وكان لديك قطّ أبتر من سلالة المانكس، يُدعى ماكس، كان يقفز من السقف ليجثم على حقيبة نومك، ويخنقك من رقبتك. كان قطّاً ملوّناً، ولديه خصلة على أذنيه. بعدها، ذهبتَ للعمل في متجر علف... كنتَ مختصّاً في طيور الكناري، على ما أظن، تعرف زقزقتهم، ومنشأ كلّ واحد منهم (إيطاليا

وإنجلترا وإسبانيا وتركيا واليونان وفرنسا)، وذلك من خلال زقزقتهم. كلّ واحد فيهم كان مميزاً، كنتَ تقضي يومك في تجميع الأغاني والبيض وألوان الريش، بعضها أصفر مشرق، بعضها برتقالي زاهٍ. كانت بعض العصافير صامتة، مثل ذلك الكناري الأسود.

11

لا يمكنني سوى الشعور بالتشابه بيني وبينه، لست أدري كيف أفسّر هذا الشعور!

يبدو وكأننا الشخص نفسه، أو أنّنا توأم ضائع... شكل الحاجبين والذقن واختلاجة الأذن، حتّى عادة إدخال الأيدي في الجيوب... الطريقة ذاتها التي تبدو بها العيون واثقة.

12

كنتَ دائماً تستيقظ قبلي، في وقت مبكّر جداً، على الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً. كانت تنبعث من وجبة ماكس رائحة كريهة للغاية، وما زلتُ لغاية اليوم أتذكر صوت اصطدام علبة أكله بالقمامة. أما أنت، فكنتَ دائماً تتّجه للعمل نحو متجر العلف، مرفوقاً بطيور الكناري في بلدة أخرى قريبة من هنا، وكانت هذه الأخيرة، بدورها، تضمّ عدّة بلدات صغيرة. كما كنتَ تشتغل في مجال تربية الدواجن، كان الدجاج على ما أذكر أرقط، يُدعى ليغهورن، وكانت هناك طبقات من علب البيض الأبيض. أتذكر

نوعاً من الدجاج الإسباني، يمتاز بيضه بلون فريد، لم يكن أبيض، بل أزرق، كلون السماء، ويميل أحياناً إلى الخَضار. اعتدتُ مشاهدته في حظيرة الدجاج الصغيرة، كنت أستظل تحت شجرة الأفوكادو، كانت شجرة معمّرة، لدرجة أنها كانت تتدلّى على الأرض، وبعض أغصانها ساقط ومطمور تحت الأرض. لقد كانت حقاً شجرة عملاقة، أحبّها الدجاج، لأنهم كانوا يستظلون بأغصانها، ويستدلّون بفضلها على ذئاب البراري، لأنها كانت تحبّ مضغ أوراق الشجرة الجافة. على أيّ حال، أحدّثك عن تلك الفترة التي كنتَ تعيش فيها في هذا المرآب من المنزل الصغير، في بلدة صغيرة جداً في شمالي كاليفورنيا، حيث يقف العمال المهاجرون في الزوايا، آملين في الحصول على عمل. كنتَ عادة ما تعمل بالبساتين، تقلّم الكروم، وتمشّط

أوراقهـا، وتجمـع مـا سـقط منهـا، ثـمّ تُحـرق وسـط الحقـول، وتنجـرف سُـحُب الدخـان نحـو الطريـق السـريع.

يوجـد الآن سـحابة بيضـاء عملاقـة فـوق المزرعـة! تقـول ابنتـي إنهـا تشـبه قنبلـة ذريـة، إنهـا ذكيـة للغايـة بالمناسـبة... تـرى الأشـياء والأمـور قبـل حدوثهـا.

13

في ذلك الوقت، كان لديك كلّ هذه الحجارة في الفناء، هل تذكر؟ كانت ألوانها المختلفة تميل إلى الفتور... حمراء وخضراء وزرقاء وبيضاء ورمادية. كان شيء ما يدور ببالك، كنت تصنّع الأشكال والأرقام على الحجارة، باستعمال الأدوات اليدوية، كالأزاميل والمطارق والمبارد. كان هناك تمثال أخضر من الحجر هشّ للغاية، كنتَ تخشى كسر رقبته. كان عليك أن تكون حذراً جداً أثناء ضربك للحجر، لأنّ حركة واحدة خاطئة، وتجدُ رأسه عند قدميك. أذكر جيّداً كيف كانت يداك تتعامل مع الحجر.

كانت سلسلةٌ تحيط بالفناء الخلفي المُسيّج، وكانت نافورة الماء في مكان ما، ذهبتَ إلى بيركلي أو أوكلاند في شاحنتكَ، بحثاً عن الحجر، وأنت تحبّ هذا المكان بالتحديد، لأنّ الشاب الإيطالي ذا الجسم الصغير، الذي كان يدير المحجر، يعرف الكثير عن الحجر، وكان دائماً يرشدك وينصحك.

وقتها، كان موسم الحرائق بامتياز، جميع الحرائق تحيط بالمناظر الطبيعية وتشبّ فيها. وكانت لدينا شطائر في مكان ما خلف النافذة الكبيرة، وأعتقد أننا كنّا نذهب للسباحة في ينابيع إنديانا الحارّة، المحيطة بأشجار النخيل والثعابين. بلغت سحب البخار الضخمة السماء، كانت المياه حارّة للغاية، عندما تخرج من الجبل وتتبخّر، لا بدّ أن تبرد في حوض مغاير، قبل أن تنتقل إلى آخر، لأنّ درجة حرارتها كانت عالية، ولا يمكن السباحة

فيهـا. أتذكّـر ذلـك جيـداً، حيـن انتهيـتَ مـن نحـت التمثـال الأخضـر، وضعتَـه فـي المطبـخ، فـوق جهـاز التلفزيـون القديـم، الـذي كان يبـثّ بالأبيـض والأسـود.

14

كان أحياناً يتحدث إلى نفسه... من عساه أن يكون غيره؟ أرى من هذه المسافة، أنّ شفتيه تتحركان، شفتاه ترافقانه. كانت الإيماءات هي نفسها، كما لو كان يتحدث إلى شخص آخر... لا بدّ أن يكون هناك شخص آخر! لكن يصعب معرفة ذلك. يحدث أن يجتاحني شيء ما، لست متأكداً ما هو، أحياناً ينقلب مثل الريح، مرّات أشعر أنه يشبه أظفار القدم، أو كالأمواج التي تتخلّل بين أصابع القدم. أتذكر حين كنتَ تنوي كتابة قصص كاملة، أو فقرات أو جمل كنت تستهلّها بـ «أحياناً»...هل تتذكر كيف كنت تفعل ذلك؟ أعتقد أنها كانت طريقة جيدة للبدء.

«أحياناً» كنتَ تقصدُ بها: ليس دائماً ولكن أحياناً، أو أحياناً وليس دائماً. كنتُ أسأل نفسي: «لماذا يا ترى تتبع كلمة «أحياناً» كلمات مثل: اللون، الطيور، الريح، الكلاب؟ وفي بعض المرّات، كان المعنى يبدو لي واضحاً جدّاً. أو كنتَ تبدأ الجملة أو القصة بـ «على سبيل المثال»! على سبيل المثال، تنمو شجرة البلوط، على سبيل المثال، تهبّ الرياح أو تسقط أوراق الشجر أو يلهث الكلب، أو يصدر الذباب طنيناً، أو تتجه الفراشات إلى الداخل والخارج، أو تسقط الأوراق. على سبيل المثال، أحياناً، ليس في كلّ الأحيان، بل في بعضها فقط».

في الواقع، مرّات أعتقد أنّ به خطب ما، يحضره الناس أحياناً، وأحياناً يجلس لوحده، ويتحدث إلى نفسه دون أن يتحرّك على الإطلاق أو يغفو. يحدثُ أن أتمنى لو أعود

إلـى ذلـك الزمـن.

هنـاك فـي الممـر، توجـد سـيارة بيضـاء عليهـا ملصـق أزرق، يشـير إلـى أنّ أحـداً معاقـاً يركـب سـيارة بيضـاء تحمـل لوحـة تسـجيل أريزونـا.

لا أحـاول أن أثبـت لـك أيّ شـيء! لا أحـاول أن أثبـت أنّنـي كنـتُ لا أحـاول أن أكـون الأب الـذي كنـت تثـق بـه عندمـا كنـتَ يافعـاً. لقـد ارتكبـتُ بعـض الأخطـاء، ولكـن ليـس لـدي أيّ فكـرة عنها، ولـم أرغـب أبـداً فـي البـدء مـن جديـد، لا تنتابنـي الرغبـة فـي التخلّـص منهـا... إنهـا جـزء منّـي. ربمـا كان يجـب أن نلتقـي كغريبيـن، وأن نتحـدث فـي أعمـاق الليـل، كمـا لـو أننـا لـم نـرَ بعضنـا مـن قبـل، كل مـا نعرفـه، هـو أنّ هنـاك شـيئاً مـا لـه علاقـة بالماضـي، ومرتبـط بـه بشـكل غامـض.

وضعـتَ الأعـلام علـى الأعمـدة لإرشـاد الذاكـرة... أو توجيـه شـيء مـا، بعبـارة أخـرى،

هنـاك شـيء بـارز كالعلـم علـى العمـود. تمامـاً مثـل فعـل الإسـبان فـي القـرن الخامـس عشـر، حيـث وضعـوا أعمـدة في السـهول مـن الحـدود المكسـيكية الجديـدة حتـى شـمالي ولايـة تكسـاس، لتحديـد أيـن كانـوا، وإلـى أيـن هـم ذاهبـون. كانـت الأعـلام الحمـراء الصغيـرة، تـدلّ علـى موطـن عائلـة كومانتـش المشـهور، لكـن كان يبـدو أن كلّ شـيء قـد ضـاع.

15

كنتُ أتمتع بصحة جيدة نسبياً، وكان ابني بصحة أفضل. أنت يا بُنيّ الذي كنتَ تعمل في متجر طيور الكناري وصقل الحجر. أعتقد أنّ جدّيك جاي وأوبرا، كانا يعيشان في مرآب آخر على الجانب الآخر من المدينة. كان جاي يتمتع بصحة جيدة، ولكن أوبرا لم تكن كذلك، لقد كانت تعاني من عدّة أمراض، التي كانت تزداد سوءاً كلما أمطرت، كالسعال الجاف والعطاس والقيء من حين لآخر. كانت المشكلة في هذا المرآب، هو أنه كان يقع في سهل معرّض للفيضان، لذا، كلما أمطرت بغزارة، يصل الماء إلى أعناقهم

وينزلـق المشـمع، ينثنـي، ثـم يتعـدّى حـدود الألمنيـوم الفاصلـة. لكـن حتى تلـك الفتـرة، كانـا يتمشـيان متشـابكي الأيـدي، نحـو المقهـى الـذي تملكـه المـرأة التـي كانـت علـى علاقـة غراميـة بـك. لقـد كانـت متزوجـة آنـذاك، ولكنكمـا لـم تهتمَـا لذلـك، أتذكـر جيّـداً كـم كنـتَ تحبهـا. كان لديهـا الكثيـر مـن القهـوة، وكانـت دائمـاً موجـودة فـي المقهـى. أمّـا أوبـرا، فكانـت تصـرّ علـى التظاهـر أنّ كلّ شـيء علـى مـا يـرام.

كانـا يسـيران عبـر الحديقـة الصغيـرة، التـي تُدعـى «زوكالـو»، كانـت آنـذاك تبـدو وكأنهـا قريـة مكسـيكية قديمـة. كانـا يجلسـان علـى الطاولـة فـي الزاويـة، وينظـران إلـى زوكالـو عبـر النافـذة الكبيـرة، ويريـان العمـال المهاجريـن يتحدثـون عـن مشـاكلهم العائليـة، فمثـلاً، كان حديـث النسـوة يـدور دومـاً حـول معشـر الإنـاث، كالنسـاء المتزوجـات والعشـيقات.

في تلك الأثناء، يحاول جاي وأوبرا في المقهى، لفت الأنظار بحديثهما عن نيتشه وإيرول غارنر، والحمامات الساخنة أثناء احتساء القهوة البرازيلية.

جلسا على الطاولة المستديرة، بالقرب من النافذة الكبيرة في ساعات الصباح الأولى، كان جاي يحبّ الاستيقاظ في ساعات جدّ مبّكرة أو متأخرّة، أحياناً على الساعة الرابعة صباحاً، وأحياناً أخرى على الثالثة، كما اعتادت أوبرا على النوم طوال اليوم، بسبب إصابتها بالصداع النصفي، وحالتها التي كانت تزداد سوءاً. بدأت الأمطار في الهطول، لم يكن الوضع كارثيّاً للغاية، لكن تسبّبت غزارتها في فيضان بالمدينة الصغيرة، في المرآب، حيث كان يقيم جاي وأوبرا، غمرت المياه كلّ المكان بشكل مهول، حيث أُجبرا على الرحيل، كما فاض النهر الروسي بضفافه،

واجتُثّتْ الجسور وانفجرت السدود... ولم يتوقف المطر عن الهطول.

وقتها، ورث جاي من والده المتوفّى مبلغاً من المال، يكفيه لشراء منزل، لذا، توجّه هو وأوبرا على متن سيارته «تشيفي نوفا» البيضاء، إلى نيو مكسيكو، بعد أن سمعا من خلال صديق، أنّ كولومبوس بنيو مكسيكو، كان مكاناً مناسباً. كانت كولومبوس هي المدينة التي هاجمها بانشو فيلا سنة 1914 تقريباً، وهي أوّل مدينة مشهورة في الولايات المتحدة، التي تمّ غزوها من الخارج، بما في ذلك ميناء بيرل، كانت آنذاك، بالكاد تُعتبر بلدة. أُرسل الجنرال بيرشينج إلى هناك، لكنه لم يلمح طيف بانشو فيلا، في حين اجتاح هذا الأخير كولومبوس.

عند وصول جاي وأوبرا إلى كولومبوس،

كان الأمـر مختلفـاً تمامـاً عمَـا كانـا يتخيّلانـه، إذ صادفـا كيـس بلاسـتيك أسـود يتدلّـى، عالـق بالأسـلاك الشـائكة، وعـدداً مـن الحمـام الميْـت فـي الطريـق.

اتخـذا المنعطـف وعـادا إلـى مدينـة ديمنـج، بنيـو مكسـيكو، فـي المنتجـع الصحّـي «تـروث أور كونسيكوانسـز Truth or Consequences» بديمنـج، المدينـة المعروفـة بسـباقات البـط التـي تقـام فيهـا. توجّهـا مباشـرة إلـى وكيـل عقـارات، وسـألوه عمّـا إذا كان لديـه أيّ منـزل للبيـع، قادهمـا إلـى مـكان يقـع فـي شـارع آيرون، وإلـى مـكان آخـر. سـرعان مـا أبديـا إعجابهمـا، تنـازل جـاي عـن كلّ الميـراث الـذي كسـبه بشـقّ الأنفـس، لصالـح وكيـل العقـارات، وفجـأة، أصبحـا يمتلـكان منـزلاً خاصّـاً فـي البلـدة الحدوديـة الصغيـرة، التـي تدعـى ديمنـج. هكـذا وصـلا إلـى هنـاك: «أنظـري إلـى السـماء!» قـال

جاي لأوبرا، نظرت إلى الأعلى، أردف: «هل أنتِ مهتمة بكل هذا؟ بأسلافكِ؟ بجدتكِ وجدي؟ بالحبّ؟».

نقل جاي وأوبرا كلّ أغراضهما من المرآب الثاني المغمور بالفيضان، إلى ديمنج، في مقطورة خاصة، كانت تحمل بيانو، والعديد من الكتب والصور، وبعض من الحيوانات المحنطة، طاولة من خشب البلوط، أريكة، كلّ الأغراض المتراكمة، بالإضافة إلى دفاتر جاي، وصور فوتوغرافية شتّى، وبعض الفطريات. نقلا كل تلك الأشياء إلى ديمنغ، وبدآ حياتهما الجديدة هناك.

في هذه الأثناء، في طريق العودة إلى البلدة الصغيرة، التي تدعى زوكو في شمالي كاليفورنيا، كنتَ أنتَ والمرأة التي تملك المقهى، أقصد زوجتك الآن، تعيشان في وئام تام.

16

فـي هـذه الصحـراء المرسـومة، التـي كنـتُ فـي الأصـل أشـير إليهـا، كُنـتَ تسـير هادئـاً عبـر حدائقهـا المنحوتـة باتجـاه العيـادة، كانـت الصحـراء كلّهـا رمـال ممشّـطة، وحدائـق مليئـة بعلامـات صغيـرة، تبـدو وكأنهـا أحجـار الدومينـو مـن بعيـد، لافتـات كُتـب عليـه: «احـذروا حشـرجة الثعابيـن». أذكـر جيـداً، كان النـاس يأتـون مـن جميـع أنحـاء العالـم للحصـول علـى العـلاج السـحري مـن العيـادة، يذهبـون فـي سـيارات ليموزيـن فاخـرة، يدفعهـم العمـال فـي الكراسـي المتحركـة بتقنيـة عاليـة، أبـواب زجاجيـة منزلقـة تُفتـح أمامهـم. علـى جـدار البهـو

مُعلّقة صورة الأخوين اللذان افتتحا العيادة في مينيسوتا: صورة لهما أثناء هبوب عاصفة ثلجية، والندف يتساقط من كلّ صوب، كانا في مهمة جلب العلاج إلى الصحراء، يرتديان الأحذية الخاصة بالثلج ومعاطف ثقيلة.

هنا، في صحراء أريزونا، تبلغ الحرارة 112 درجة، لكن هؤلاء الرجال يسيرون في الثلج بابتسامات مبهجة على وجوههم، يا لها من لوحة جدارية ضخمة، تجتاح أحد جدران العيادة، توحي بإمكانية سماع صفير رياح العاصفة، رغم أنّنا في الصحراء، وتملأ المكان حدائق منحوتة، كلّها رمل وصبار وثعابين مثيرة للدهشة.

17

ذات يوم، قدِم «بانشو فيلا» من دورانجو «المكسيك القديمة»، التي كانت في ذلك الوقت نهاية «سانتا في تريل»، أو بدايته (حسب اتجاه الطريق التي كنت تسلكه). بعبارة أخرى: إذا كنت قادماً من أمريكا، ستكون «سانتا في تريل» بداية لـ «سانت لويس» بولاية ميسوري، وكانت وقتها أمريكا معزولة للغاية، ومحاطة بالأعداء. انطلاقاً من «سانتا في تريل» من «ميسوري»، وصولاً إلى دورانجو، المكسيك القديمة، حيث ولد بانشو فيلا ودولوريس ديل ريو، كما هناك شارع

يحمل اسم هذا الأخير، وسط دورانجو، إذا كان هناك من تهمّه المعلومة!

على أيّ حال، بعد تقاعد رانشو بانشو فيلا المكسيكي، انتقل إلى مزارعه خارج دورانجو.

بعدها، اُكتشفَ أنه لم يكن القائد الفعلي للثورة، بل كان هناك رجل من إنديانا في الجنوب، يدعى إيميليانو زاباتا، وكان أكثر أهمية من الناحية السياسية.

كان بانشو فيلا يعيش سعيداً في هذه المزرعة، إذ كان يملك سيارة دودج سيدان بنية اللون، وسائقاً خاصاً بها، بالإضافة إلى الكثير من الحرَس. كان فيلا يذهب بشكل دوري إلى المدينة، ليسحب الذهب من البنك، بغية دفع أجور العمّال الذين يشتغلون لحسابه. وفي يوم ما، قرر الذهاب إلى البنك، وفي

طريق العودة، على متن سيارة دودج، حملوا أكياس الذهب، وتوجهوا من المدينة التي يملأها الغبار إلى المزرعة. ودون سابق إنذار، ظهر صبي ذو تسع أو عشر سنوات، كان يبيع بذور اليقطين حافي القدمين، ويرتدي قبعة السمبريرو الضخمة، ويحمل كيس البذور على كتفه. خرج متحمساً جداً، يصرخ باسم «بانشو فيلا»، وصل أمام السيارة وهو يلوح بأذرعه النحيفة، قائلاً: «بانشو فيلا، بانشو فيلا! «يحيا بانشو فيلا»! وكان ذلك إشارة إلى أن جميع القتلة يخرجون من مخبئهم، ويطلقون النار على بانشو فيلا في سيارته.

كان هذا آخر ما سمعه: «بانشو فيلا، بانشو فيلا! يحيا بانشو فيلا!»، هكذا كانت خاتمة القصة.

لا يزال هناك دورانجو، ولا تزال الصحراء

هنـاك، ولا تـزال المكسـيك هنـاك... ولكـن كلّ شـيء تغيـر.

انتقـل جـاي وأوبـرا إلـى نيـو مكسـيكو، وكانـا لا علاقـة لهمـا علـى الإطـلاق ببانشـو فيـلا. كانـا موضوعيـن وكيانيـن مختلفيـن، لـم يعيشـا حتـى فـي الحقبـة نفسـها.

18

لا تعجبني فكرة حديثه عن بانشو فيلا، سواء كان قد سمعها من الأقاويل أو الكتب الهزلية، كانت هناك معلومات خاطئة. بالنسبة لي، قصة بانشو فيلا، هي ملكية خاصة تماماً، وتنتمي إلى عالم الأساطير. لماذا يجب أن يدسّ أنفه في أمور لا علاقة له بها؟، ثمّ هي ليست قصّته حتى يرويها.

19

هناك أشياء لا تعرفها عنّي بشكل أساسي، لأنها حدثت قبل ولادتك، تظهر في ذاكرتي لسبب ما ثم تختفي، أنتَ لا تعلم مثلاً أنني اعتدت النوم على فراشٍ أرضيٍ لزاوية من الشارع «سي» والشارع العاشر في الجانب الشرقي السفلي داخل مبنى مهجور. اعتدتُ النوم هناك، وكنتُ أدفّئ المكان بكامله بموقد غاز، كان يشبه كوخاً ذا عدة طوابق، لم يكن هناك أثاث على الإطلاق، عدا بعض الأغراض الملتقطة من الشارع. في إحدى الليالي، كنتُ نائماً، وفجأة استيقظتُ على صوت امرأة تصرخ، تساءلت بيني وبين نفسي

فـي مـا إذا كنـتُ سـأذهب لمسـاعدتها، أو أتجـه إلـى الطابـق السـفلي لمعرفـة مـا كان... لكـن مبادئـي لا تسـمح لـي بتجاهـل هـذا الصـراخ. دارت فـي ذهنـي جميـع الأفـكار، حدّقـت فـي اللهـب الأزرق المنبعـث مـن موقـد الغـاز فـي المطبـخ، وأخيـراً، تشـجعتُ بمـا يكفـي، وتوجهـتُ إلـى أسـفل الـدرج، غـادرت المبنـى، ورأيـت رجـلاً يحاصـر امـرأة ويضربهـا. بمجـرد ظهـوري أمامهمـا، توقفـا عـن الشـجار، وحدّقـا فـيَّ بنظـرات فارغـة غبيـة، تمامـاً مثـل ذلـك الطبيـب فـي الصحـراء المرسـومة. صرخـت المـرأة فـي وجهـي: «مـا الـذي تنظـر إليـه بحـق الجحيـم؟»، اسـتدرتُ وركضـتُ إلـى الطابـق العلـوي، واسـتمرّتْ هـي فـي الصـراخ فـي الشـارع، وواصـل الرجـل تعنيفهـا.

20

الفترة الزمنية التي أحاول وصفها هشّة، مثل جرح صغير وقشري جداً، إنّها مبهمة نوعاً ما، هذه المرة، الأمر ليس واضحاً لي على الإطلاق، ربّما في منتصف السبعينيات أو ما يقارب ذلك. ما الذي جرى؟ ليس واضحاً على الإطلاق... كمبوديا، هجوم تيت الفيتنامي، وتحطّم المروحيات وترغيت، وصاحب تاج الثلاثية (قائد مضمار بلمونت ـ مقياس 32)، إضافة إلى محمد علي: الملك الأسمر، الذي يرفرف كالفراشة ويلدغ كالنحلة.

... بصرف النظر عن تعاقب الأحداث، لا مفر من خلطها.

21

مـن الأرجـح أن تكـون الفتـرة التـي أتحـدثّ عنهـا فـي منتصـف السـبعينيات. لقـد هـرب نيكسـون إلـى مـكان مـا... أو بالأحـرى، لا لـم يكـن هربـاً، لقـد كان نيكسـون مرهقـاً... مرهقـاً عقليّـاً. بعـد كلّ التخطيـط وجميـع التحضيـرات، اتّضـح أنّ التجربـة مختلفـة تمامـاً عـن الخطـط النظريـة، ومتعِبـة كذلـك، ولا أزال منهـكاً منهـا.

فـي جزيـرة آنجـل، هـرب ثلاثـة سـجناء مـن سـجن الكاتـراز ثـمّ غرقـوا، أو غـرق واحـد فقـط... الصـورة غيـر واضحـة، إنهـا تعـود إلـى سـنة 1975، أحـدث الأدلـة التـي توصّـل إليهـا

الكمبيوتر، تشير إلى أنّ اثنين منهم هربا إلى أمريكا الجنوبية، على طريقة فيلم «بوتش كاسيدي وصندانس كيد» Butch Cassidy and the Sundance Kid.

الحياة في جزيرة الكاتراز مستمرة، بالرغم من قصة الهروب، الشيء الذي كان دائماً يفتنني فيها، هو إمكانية التمتع بمنظر المدينة بكاملها من الشاطئ... كالبوابة الذهبية وخليج أوكلاند. بإمكانك رؤية المدينة المسالمة بأضوائها، لذا، يبدو الأمر كما لو كنت واقفاً على ساحل الكاتراز، إذ تستطيع السباحة بسهولة عبر الخليج إلى المدينة الكبيرة، لكنّ الأمر كان خطراً، لأن المنطقة هناك معروفة بكثرة التيارات المتحركة، التي تتجه أحياناً من الشرق إلى الغرب، أو في الاتجاه المعاكس، أو من الشمال إلى الجنوب. على أيّ حال، يمكن المرور بواسطة زورق آلي،

وهنـاك عـدَة أنـواع متوفـرة: القـوارب الكبيـرة، عابـرات المحيـط، زوارق التجديـف، زوارق الصيـد، القاطـرات البحريـة، القـوارب السياحية. عـلاوة علـى ذلـك، كنـتُ منهـكاً للغايـة، بسـبب الفوضـى التـي عمّـت هـذه الحقبـة، لدرجـة أننـي لـم أسـتطع حتـى أن أدخـل فـي المـاء، وأسـبح بتقنيـة المجـداف الكلبـي.

أتذكـر جيّـداً «مارفـن لـي» فـي ميـاه الكاتـراز، وهـو يسـبح علـى ظهـره بِكَسَـل، محـاولاً أن يعبـر الخليـج، لقـد كانـت الميـاه وكل التيـارات أمـراً فـي غايـة الفخامـة بالنسـبة لـه. وكان الأمـر سـهلاً، وكأن لا أحـد فكّرفي ذلـك مـن قبـل. هـو فـي الواقـع لـم يسـبح علـى ظهـره، ولكـن كان يعطـي الانطبـاع بأنـه قـد يتحـرك فـي أيّ لحظـة.

كنّـا تقريبـاً فـي سـنة 1967، تحديـداً أثنـاء فيلـم «بوينـت بـلاك Point Blank»، حاولـت

أنجي ديكنسون ضرب لي مارفن بشدة على صدره، صفعته، وظننتُ أنها تقوم بعمل جيد، لكنه ظلّ واقفاً! لم يكن اختباراً للرجولة أو القوة، أو أيّ شيء من هذا القبيل، لقد أرهقت نفسها بتسديد ضربات لأنجي ديكنسون في الفراغ، ثم سقطت على ركبتيها منهارة. وفي وقت لاحق، كانتقام منها، قامت بتشغيل جميع الأجهزة في المطبخ: الخلاط، محمصة الخبز، الغسالة، كل هذه الأجهزة، وكان عليه أن يوقفها كلها... ثم سخرت منه، وسخر منها... كان الفيلم برمّته مثيراً للسخرية.

ماذا عساني أن أقول حول عملية الهروب؟ كما سبق وذكرتُ، كانت هناك العديد من الخطط. إنّه مستلقٍ في السرير، يحدق في السقف الإسمنتي، يحضّر لكشط الجبس بملعقة القهوة، مروراً بالشبكة المعدنية والنفق نفسه والممر. مضت العملية بسلاسة

إلى حدّ ما، بخلاف العنكبوت والخيوط التي ينسجها عادة، وبقية الزواحف، إلى أن ولجتُ داخل النفق، على الأقل، يوجد ضوء في نهاية النفق، ولكن عندما نزلتُ هناك، رأيت أنّ الطريق كان عمودياً، أكثر منه أفقياً، كان يتجه نحو الأعلى، لذا، كان عليّ أن أحصل على حبل أو أعثر على طرفه. لقد صنعته في الواقع من الشراشف، ووجدت طريقي في الدرج. وعندما وصلت إلى الطابق العلوي، اضطررت للقفز من مسافة بعيدة. لم أكن أعلم أبداً، أنّني أستطيع فعلها، لكنني قفزتُ، وتمكنت من تثبيت نفسي بين العوارض الخشبية، ثمّ صعدت إلى الطابق العلوي... وكان عالماً مختلفاً تماماً هناك.

ربما لا يجب أن أخبركم بكلّ هذا. كنتُ أجدف إلى الخلف في الخليج. أنت الآن تعلم أنني سجين هارب... أنت تعرف

الكثير... سيضطر شخص ما للتخلص منك.

ربما هذه هي الشخصية التي كانت تلاحقني طوال الوقت.

دعني أبدأ من جديد، يمكنني البدء من جديد... اسمح لي بذلك من فضلك. كما سبق وذكرتُ، لم أحصل على شيء لإثباته لك، أنا لا أحاول أن أكون بطلاً في أعين أحدهم. ولستُ متأكداً من الفترة الزمنية، إذا كانت منتصف السبعينيات أو الثمانينيات، أعتقد أنها كانت في منتصف التسعينيات. الفارق إذن.. عشرون عاماً. الآن، كيف يمكن ألّا نتذكر شيئاً مماثلاً لمدة عشرين عاماً؟ حياة كاملة، عشرون سنة، تمثّل فترة طويلة، بعض الناس لا يعيشون حتى عشرين سنة، بل أقّل من ذلك بكثير... هناك من يموت لحظة ولادته.

حسناً، دعني أبدأ من جديد، كالقصص الخرافية، كان يا ما كان في قديم الزمان، في التسعينيات، أو في منتصف التسعينيات، كان هناك الكثير من الأشياء، لست أدري، كلّ ما أعرفه، أنّها كانت مرحلة انتقالية في حياتي. إنّه وقت حرج، يبدو أنّ العديد من الأمور المختلفة التي كانت تجري آنذاك، كانت مهمة، لكن ليس الآن! مثل النابالم وكمبوديا ونيكسون، وهجوم تيت الفيتنامي، ووترغايت، والإدارة الأمريكية ومحمد علي.

22

هنـاك أوقـات لا يسـعني سـوى التفكيـر فـي الماضـي. أدري جيـداً أن الحاضـر هـو الوقـت الأمثـل، كمـا أوصانـي بعـض الحكمـاء بالبقـاء فـي الحاضـر قـدر الإمـكان، لكـن يحـدث أن يتقـدّم الماضـي علـى الحاضـر. فالماضـي لا يأتـي بمجملـه، بـل دائمـاً فـي أجـزاء. هـو فـي الواقـع، يتفـكّك، يعـرض نفسـه، كمـا لـو كان فنانـاً فـي اسـتعراض الأجـزاء.

لمـاذا ؟ لمـاذا هـو الماضـي؟... عفـواً... لمـاذا هـو الحاضـر المفضـل للماضـي؟ لأنـه يُفتـرض أنّ الحاضـر هـو مـن يصنـع الذكريـات والماضي، ويبـدو أحيانـاً أنـه يمـرّ بسـرعة.

ما هي بالضبط تجربة الحاضر؟ هي ببساطة، تجربة الإخفاء التّام للهوية، وعدم الكشف عنها، الطريقة التي تطلّ بها الشمس على الرصيف، والتي تلامس بها أقدامك العارية. هي أن يطرح الكلب فضلاته بين أصابع قدميك. وأن تعيش بربع دولار لمدة طويلة، وتشتري بالمبلغ ذاته حلوى الآبازابا! هي أن تكون رائحة الكلور طاغية، وأن يناسبك سروال السباحة، وهي كذلك حين تغمر المياه رأسك، وحين تفتح عينيك تحت الماء لترى... ماذا ترى؟ ترى أشخاصاً آخرين يحاولون إبقاء أعينهم مفتوحة تحت الماء.

«فالحاضر كثير الأوجه، مثل الكثير من الماضي. لكن الحاضر يأتي بتجربة ملموسة»، يصرّح وعلامات متوترة بادية عليه «انتظر... لحظة واحدة فقط! ماذا عن المعجزات؟ ماذا عن العلاج؟ يجب أن يكون هناك علاج!»،

في وقت ما في الماضي، كان كلّ شيء على ما يرام، لم يكن هناك يأس! إذن، ما العلاج؟ هل من طريقة لعلاج هذا الحاضر؟ يمكننا القيام بشيء بسيط، مثل أخذ حمام ساخن من المياه المعدنية... أو هل علينا أن نبدأ من جديد؟ يجب أن يكون هناك علاج! نحن أبناء المعجزة. تلزمنا استراحة طويلة، متسع من الوقت... فلا أحد يتمسّك بكلماته، ولا أحد يتشبث بهذه اللحظة، ولا أحد يتعلّق بأحد».

23

أنـا الآن بصـدد اسـتعمال المنظـار، حتـى أسـتطيع أن أشـاهد مـن خـلال الشـرفة الزجاجيـة التـي يجلـس فيهـا، ليـس علـى كرسـيّ هـزاز، كمـا اعتقـدتُ في البدايـة، ولكن أكثـر مـن كرسـي مكتـب. كان ذا عجـلات كبيـرة، ومسـندين للذراعيـن، قابـلان للتعديـل، وكان مـن خلالـه يغيّـر في وضعيـات جلوسـه، لا أدري مـاذا فعـل بالكرسـي الهـزّاز؟ أحيانـاً يتزحلـق فـي دوائـر، كمـا لـو كان يطفـو علـى الهـواء. لا أدري، لا يمكننـي معرفـة ذلـك، كمـا لديـه طاولـة بيضاويـة صغيـرة، عليهـا الشـاي المثلّـج، ومجموعـة مـن الأغـراض...

الكثيـر مـن الأوراق، وكتـاب ضخـم مفتـوح علـى الصفحـة 399 (هنـا تكمـن مـدى جـودة منظـاري)، إنـه يقـف لتغييـر كلّ صفحـة علـى حـدة، ولاحظـت أنّـه لا يكتفـي بلعـق إبهامـه وقلـب الصفحـة فقـط، بـل يقـف كل مـرة.

الكتـاب ذو طـراز قديـم، يحمـل عنـوان «جينـز فايتينـغ شـيبي 1942»، Jane's Fighting Ships 1942. كتـاب سـميك ضخـم، يحتـوي علـى حوالـي 900 صفحـة، لكنـه الآن متوقـف فـي الصفحـة 399، يبـدو أن هـذا هـو تمرينـه الوحيـد، يتوقـف ويقلـب الصفحـات.

24

جدتك أوبرا، واسمها الحقيقي أوبرا ستيغل، هذا الاسم الذي أتت به، أو الذي أعطي لها في القارب، كان «ستيغل» اسم زوجها الأول. لقد جاءت من بلد أجنبي، من إنجلترا على ما أعتقد، ولم تحصل أبداً على وثائق الإقامة، أو أيّ من الأمور التي كان يفترض أن تُعدّل وضعيتها قانونياً، لذلك، كانت مهاجرة غير شرعية. كانوا يحاولون الحصول على اسمها بشكل صحيح، بحيث تصبح مؤهَّلة للحصول على نوع من التأمين الصحي... ما اسمها واسم والدتها قبل الزواج؟ والعديد من الأسئلة الأخرى. كان

هناك الكثير من الأمور السيئة التي حدثت معها... لقد كانت منهارة، لذا، كان عليهم التوجه إلى مقرّ البلدية بمدينة ديمنغ الغربية، وكانت تضمّ صورة ضخمة، أُعيدَ طبعها بنوع من اللون البني الداكن. لا أعرف لماذا، ربما لجعلهم يظهرون أكبر سنّاً مما كانوا عليه. وكانت هناك أولى صور مدينة ديمنغ في ثمانينيات القرن التاسع عشر، صفوف من البغال، خيول في الوحل، عربات، مصباح، أضواء، نشاط مكثف وصخب لمدينة حدودية ناشئة.

على أيّ حال، كان جاي مُصرّاً على موضوع تأمين أوبرا، كانا ينتظران يوميّاً في الطابور بمقرّ البلدية، بغية الحصول على هذه الأوراق. مرّا بكلّ هذا الروتين الحكومي، الذي ميّزه كثرة المكالمات الهاتفية، حيث تنتظر على خطّ المحوّل الهاتفيّ، ثمّ تختار:

إذا كنت تريد فلاناً اضغط على الرقم 4، شيء من هذا القبيل، لكنك لا تعثر على أحد... مجرد صوت بلا جسد!

كان عليهم أن يكونوا حذرين للغاية، لأنّ ذلك كان بعد أحداث 11 سبتمبر، وكانت الحكومة والبلدات الصغيرة، مشتبه في أمرها، والكلّ يشك في أنّ شيئاً ما على وشك الحدوث. أُصيب الجميع بجنون العظمة، لا سيما المهاجرين منهم، لذا، إذا تبين أنّ أوبرا لا تملك أوراق رسمية، فإنه ليس من حقّها أن تكون هنا في «أمريكا: أرض تمثال الحرية»، إذ سيتم ترحيلها على الفور، ووضعها على متن قارب، ومن ثمة إعادة إرسالها إلى إنجلترا القديمة، حيث كان الألمان يقصفون المكان، حينما كانت صغيرة.

25

ربما لستُ شخصاً مصاباً بجنون العظمة، أعني أنّ جنون العظمة ليس أوّل ما خطر ببالي لوصف نفسي. لكن بالأمس، تركتني أخواتي لوحدي لخمس دقائق في الشرفة، ولمحتُ طيفاً ما يعبر الشارع، طيف شيء ما فضيّ. كنت مندهشاً، كيف أضاء في نور الصباح! نظرت ورأيت هذا المنظار المزدوج، الذي يشبه عيون البومة. كان هناك شخص ما في كرسي يشبهني كثيراً، ويضع المنظار في حقيبة جلدية. لكني فكرت: يا إلهي، لماذا كان ينظر إليّ؟ أنا لا أعرف أيّ شخصٍ في هذه المدينة، ولم يسمع عنّي أحد بعد، ثمّ هناك شخص

غريب يراقبني! ما أغرب هذا الشعور! كما لو كنتُ حيواناً برياً أو شيئاً ما... لكن ربما يراقب الطيور. لقد شاهدتُ الطيور بنفسي من خلال المنظار، إنّها قريبة جداً، ربما يكون الرجل بريئاً تماماً، وأكون مصاباً بجنون العظمة، قد يكون هذا كلّ ما كان يفعله، مشاهدة الطيور من بعيد عبر الشارع. كانت هناك طيور من مختلف الأنواع: طيور أبو زريق، الشحارير، عصافير الدوري والتوهي... لكني لم أعتبرها أبداً طيوراً مميّزة.

26

الآن هناك سنونوات تقتحم جميع أنحاء المنزل، بغرض صيد الحشرات أعتقد، هناك على الأقل ثلاثة أو أربعة... أو ستة على الأكثر. يمتاز ريشها باللونين البنيّ المحمرّ والأزرق، وكنّ سريعات جداً، مثل الطائرات الصغيرة، يكتفين بالطيران حولنا، ثمّ يقتحمن المكان. لا يمكنك حتى رؤية الحشرات التي يلاحقنها، قد تكون حشرات خيالية، لكنها ليست كذلك، فالهواء مليء بحشرات لا يمكننا رؤيتها.

إنه يوم حارّ وصحو، مرفوق بنسيم

طفيف، هناك طائر غريب في بعض الأحيان ينزل ويهبط ويغرّد، أو بالأحرى، يقلّد تغريدة تعلَّمها. إنها طيور صغيرة مدهشة حقاً، اعتادت الاستيقاظ والنوم على صوت الطيور المحاكية، كانت تغرد المقاطع التي ألفتها، والمستلهمة من أعمدة الإضاءة الليلية. لكن هذا الطير الصغير غريب الأطوار، ينتابه نوع من الاكتئاب في أيّ وقت من اليوم، أظنّ الأمر عادياً، مجرّد طائر في مكانه الطبيعي، هذا كلّ ما في الأمر.

27

كان الشفق يكتسح السماء، ويشبه إلى حدّ ما الانفجار أثناء العاصفة، تلك العاصفة التي قد تمطر لأيّام متتالية، والتي سبق لنا أن شاهدناها، بالفعل، شيء يمكن أن يمتد عبر الأنفاق، يشبه إلى حدّ كبير حادث سدّ أوروفيل...كان الناس يركضون بشكل هستيري في كلّ مكان، ويتساءلون عمَا إذا كان النهر سيجرفهم، ويجرف منازلهم الصغيرة وكلابهم. هكذا كان مزاج السماء يومها.

على العموم، انتقلت إلى الجانب الآخر من الشارع، حيث كان الناس مختبئين وراء

شـجيرة الكاميليـا، ويرتـدون غطـاءً كهربائيـاً، وكانـت أرجلهـم ملفوفـة فيـه، ومقيـدة فـي جـوارب التزلـج، وكانـت الأسـلاك الكهربائيـة تتدلّـى. ثـمّ لمحتُـه علـى الكرسـي المتحـرك، يتمتـم مـع نفسـه بخصـوص الطقـس، يبـدو أنّ شـخصاً مـا تركـه هنـاك ورحـل إلـى مـكان آخـر. رأيتـه مـن خـلال الشـجيرات، كان الجـو صحـواً كفايـة لرؤيـة لونهـا الأحمـر الداكـن. أمـاّ شـجيرة البوغنفليـة، فقـد تجـرّدت مـن الزهـور فـي هـذه المرحلـة، لأنّ فصـل الشـتاء قـد حـلّ، رغـم الأجـواء الربيعيـة السـائدة.

آمـلُ ألّا أتسـبّب فـي أيّ انقطـاع فـي طريقـة تفكيـرك، لكـن يجـب علـيّ الإبـلاغ عـن سـرقة غامضـة بيـن الشـجيرات خلفـي... كمـا سـبق وقلـتُ، أنـا لسـتُ مصابـاً بجنـون العظمـة، ولكـن شـعرتُ بخطـوات واضحـة ممزوجـة بحفيـف الأوراق. كنـتُ أنتظـر فقـط، كنـتُ أحتـرف

الانتظـار! لقـد تُركـتُ وحيـداً. أنـا لا أمانـع إذا كان يريـد أن يسـألني عـن شـيء مـا، ولا أمانـع مـن الـردّ إذا اسـتطعت... جميـل أن يكـون هنـاك شـخص مهتـمّ بـي أصـلاً!

أتساءل ماذا بعد يا تُرى؟

علـى أيّ حـال، كان جالسـاً بهـدوء فـي كرسيه، كمـا لـو كان فـي انتظـار شـخص أو شـيء مـا، ينبّـش فـي ذكرياتـه. لا يعـرف أيـن هـو: فـي الفضـاء، أو فـي الزمـن.

عندمـا غـادر المنـزل للمـرة الأولـى، تذكّـر أنـه بقـي فـي مـرآب لتصليـح السـيارات، فـي بلـدة تدعـى ألتـا فيسـتا، ليـس بعيـداً عن سـانتا أنيتـا، في سـفوح كاليفورنيـا. كان هنـاك سـرير، وكان ينظـر مـن النافـذة، ويـرى الجبـال مـن تلـك المسـافة. قبـل مـدة طويلـة، خرجـت ابنتـه مـن المنـزل المظلـم، خلـف نبـات الكاميليـا الحمـراء، وراء

الضوء الخافت، طلب منها الجلوس بجانبه، سحبت كرسيّ الحديقة الحديدي، ومسحت عنه قطرات المطر، ثم جلست، كما لو كانت في المدرسة، تستمع باهتمام وتتعلّم.

قال إنّ الغرفة التي يتذكرها، كانت امتداداً لمرآب مختلف، لا يشبه أي مرآب آخر شاهده من قبل، كان يعتقد أنّه يحتوي على نوافذ ضيقة، حوالي خمس أقدام من مستوى الأرض.

ـ انتظر لحظة يا أبي، أيّ غرفة؟ عمّ تتحدث ؟

ـ الغرفة ذات النوافذ الضيقة، انظري إلى مضمار السباق.

ـ عن أيّ مضمار تتحدث؟ أين كان؟

كانت السيارات متوقفة في الجزء المقابل

لحلبة السباق، وكان السّياج يربط سلسلة السباق على امتداد المضمار، ويشكّل تقاطعاً مع المسار الرئيس. كانت الأمور ساكنة وهادئة للغاية على قمّة الهضبة، تحديداً في الجزء العلوي من سلسلة السباق. وإذا بالخيول تختفي بحوالي ستة فيرلونغ، قبل سماع صوت الحشد، ووقع أقدامهم على الأرض، والصراخ والمواء، وجميع أنواع الأصوات المتداخلة... من هذه النقطة، كانت الخيول تبدو بحجم مباري قلم الرصاص، كانوا بحجمهم الطبيعي، ثم أصبحوا صغيرين جداً.

أُطلِقت رصاصة واحدة خارجاً، طلقة واحدة من بندقية صيد، أو بندقية ذات منظار. سرعان ما تحوّل ضجيج الحشد إلى سكون. رأيت على الفور خطّ الخيول ينحرف حول الحصان القائد، الذّي كان على الأرض مع

الفـارس يتلـوى. سـاقاه ترفرفـان فـي الهـواء، وبذلـة الحريـر ممزقـة، تجـرّد السـرج مـن لونـه، وانكسـر اللّجـام فـي فـم الحصـان، وكان المعلقّـون يقفـزون مـن على السياج. جميـع مـن كان فـي الجـزء المقابـل لحلبـة السـباق، يقدِّمـون يـد المسـاعدة... الفرسـان، المسـاعدون، الفتيـات والأولاد المتمرّسـون، يركضـون فـي كلّ الاتجاهـات، ويصرخـون ويشـيرون، جميـع مـن كان فـي المضمـار عبَـر الخـط، وأخـذ الحشـد فـي الصـراخ، سـمعتُ صفّـارات الإنـذار مـن بعيـد. كان رنيـن الأجـراس غيـر مبهـج بالمـرّة... أجـراس الطـوارئ... كلّ شـيء كان فـي حالـة طـوارئ.

انحنـتْ قليـلاً نحـوه: متـى كان هـذا يـا أبـي؟ لا أتذكـر أيّ شـيء مـن هـذا القبيـل!

واصـلَ حديثـه: أُصيـب الحصـان القائـد،

وحُدِّدت هويّة الرجل الذي أطلق النار ببندقية الصيد (ذات المنظار)، وهو متربّع على شاحنة البضائع. ثمّ اعترَف لاحقاً أنه تمّ تعيينه ليكون القاتل، لقد تلقّى الأوامر من جبل رشمور.

كان يفرّ هرباً من مسرح الجريمة، قفز ثم ألقى البندقية وسط شجيرة الميرمية. اتّجه إلى أحد المراكز في الخليج، حيث طلب الثلج..! كان صاحب المحل سعيداً وهو يلبّي طلبه، جلس مقابل كيسين جليديين، وبدأ في قضمها، بينما كان صاحب المحل يتصل بالشرطة. ثم سأل إذا كانت هناك غرفة... «لا بدّ أن تكون هناك غرفة في هذه المدينة!»، هزّ المالك كتفيه: «هناك فرصة ضئيلة للعثور على واحدة»، ثم سأله عن سعر الغرفة: «عشرة دولارات»، ردّ عليه المالك، «سأحجزها... سأحجزها»، خاتماً حديثهما.

بعدها غادرتُ الولاية، غادرت وما عُدتُ بعدها. والآن، من المهم أن أعرف أين كانت تلك الغرفة؟.

لون بدلة الفارس الحريرية، لون الخيول، كلّ المراهنين على الخط، الاحتمالات الصباحية، القهوة والفاصوليا السوداء، الكهنة يهرعون من أجل الاختباء، الكلاب السلوقية تنبح على الدمى المهترئة... هكذا كان جوّ الغرفة الذي تكلّف عشرة دولارات في اليوم.

الرياح تهزّ حبّات الجوز الخضراء الصغيرة، تُسقِطها ثم تدور... كل شيء يدور هنا. تحوّلت أشجار الخوخ وشجرة المغنولية إلى دوّامات، وأصبح لون السماء رماديّاً... العاصفة توشك على الهبوب.

ـ ربما لم أخبركِ بكل ذلك، لكن حينها لم تكوني ولدتِ بعد!

ـ حسناً، يا أبي! يمكنك إخباري بأيّ شيء! لكن أعتقد أننا يجب أن ندخل الآن! ستمطر.

ـ هل يمكنك أن تأخذيني إلى محلّ البقالة؟ يطلب منها فجأة. هل يمكن أن تأخذيني هناك في هذا الكرسي المتحرك الآن؟ هل يمكن أن تشتري لي بعض الأغراض؟ أحتاج إلى صلصة المايونيز، وعلبة سردين وموزة وفطيرة محلاّة بالحنطة السوداء، وقد أحتاج إلى بعض القهوة الفورية... هل يمكن أن تأخذيني إلى هناك، ونرى ما لديهم؟

أمّا أنا، فكنتُ أتبعُهم من الخلف، عبر الجزء المضيء للطريق، يأخذ الرذاذ في التساقط، تثير الريح زوابع الغبار. تردَّدتْ قليلاً، قال لها: واصلي!

إلى أين يذهب الآن؟ أين يعتقد أنه ذاهب؟

هل سيغادر هذه المدينة إلى الأبد؟ هل سأراه مرة أخرى؟

تزداد سرعة الريح، إنهما يتّخذان الاتجاه ذاته، وهي تدفع الكرسي المتحرك للأمام، قالت: أبي؟ لماذا تحتاج هذه الأغراض الآن؟ لماذا كلّ هذا الأكل؟ أنتَ لن تصطاد اليوم!

ـ أنا لن أذهب إلى الصيد، على الأقل لا أبحثُ عن الطعام... واصلي طريقك!

ـ أنا لا أعرف أين تقع هذه الغرفة... أو المرآب. ليس لديّ أدنى فكرة، لا سيما إذا كنتَ لوحدك تتذكر المكان.

ـ لوحدي أتذكر المكان؟... أتذكر كلّ شيء! يقول لها وهما يتمشيان على الطريق الضيق، بينما يبدأ المطر في التساقط.

28

تلاحظ الطبيعة التدريجية للأشياء، كيف تجري الأمور، وتختلف، لا ترغب في التصديق، تلاحظ على سبيل المثال، تنفسه والضيقة التي تنتابه، حركة ذراعيه، وعدم التنسيق بين دماغه ويده، مثلاً: إذا كان الرأس يسمح للرقبة بالاسترخاء، ويكون في مستوى العمود الفقري نفسه، وعلى مستوى متساوٍ إلى حدّ ما، سامحاً للرأس بالاستراحة مرّة أخرى على كرسي أديروندالك، ثم إنّ الهواء الذي يدخل ويخرج، يسمح بتحريك الرقبة. عندما يحدث ذلك، فإن الدماغ والعقل يميلان إلى التفكير بحرية أكبر نوعاً ما.

مـاذا يحـدث إذا تحـرّك الـرأس نحـو الأمـام، وتسـبّب فـي تضاعـف حجـم الرقبـة، وذلـك بخلـق نـوع مـن الانسـداد، حيـث لا يتوقـف التنفـس فحسـب، بـل الفكـر أيضـاً؟ الفكـر والدمـاغ لا يعمـلان بنفـس المسـتوى، عندمـا تكـون الحنجـرة مفتوحـة. فمثـلاً، عندمـا يتّـم إغـلاق العينيـن، يصبـح التركيـز علـى الأصـوات أعلـى وأكثـر وضوحـاً، كالصـوت البعيـد للطريـق السـريع، وصـوت القيـق، الـذي يذكرنـي دائمـاً بالجبـال الصخريـة وارتفاعاتهـا الشـاهقة، أصـوات الشـحارير حمـراء الجناحيـن، وطيـور النمنمـة، والصراصيـر، وأجنحـة الفراشـات. لكـن مـاذا يحـدث إذا توقّـف ذلـك الضجيـج تمامـاً؟ لا صـوت علـى الإطـلاق... لا تفكيـر... ولا أدنـى فكـرة. مـاذا يحـدث إذا انتهـى كلّ شـيء؟

29

كان جاي يمرّ على الطريق السريع برفقة أوبرا في سيارته شيفي نوفا البيضاء، وعلى متنها كرسي متحرك مصنوع من الألمنيوم. كان يتنقّل من عيادة إلى أخرى، على امتداد الطريق باتجاه أريزونا. كان يحاول العثور على طبيب ليخفف عنها، كان يريدها بصحة جيدة، لكنّ الأمور كانت تسوء يوماً بعد يوم: كان شعرها الأحمر الفاخر يتساقط، وعيناها الخضراوان بدأتا تصابان بالعمى، وحالتها الصحية تتدهور. كان جاي يعمل طوال اليوم في قسم الأطعمة الجاهزة، ولا يزال حال أوبرا في تدهور، بسبب عمليات نقل

الـدم، التـي كانـت تخضـع لهـا، بالإضافـة إلـى النزيـف الدماغـي الـذي تعرضّـت لـه، وعروقهـا التـي تورّمـت. كانـت غرفتهـا مليئـة بقـارورات الأكسـجين والضمـادات والأنابيـب.

كان جـاي يمـرّ بوقـت عصيـب، يُمضـي وقتـه فـي التنقّـل مـن مـكان لآخـر، باحثـاً عـن عـلاج ما لأوبـرا. يئـس بعـد أن حـاول العديـد مـن الطـرق، كغسـيل الكلـى دون جـدوى، لقـد كانـت تفقـد الكثيـر مـن الدمـاء، وانخفـض وزنهـا. كانـت أوبـرا على وشـك فقـدان الوعـي، وكان هو يسـأل الطبيـب مـرار: «مـاذا يحـدث لهـا؟»، يلتفـت إليـه الطبيـب بـكلّ بسـاطة: «إنهـا تمـوت!».

كان جـاي فـي قسـم الأطعمـة المكسـيكية، يفـرز قـارورات الكاتشـب والصلصـة الحـارة، ويصفُّهـا خلـف المايونيـز علـى إيقـاع الموسـيقى. سـأله أحدهـم، مَـنْ كان يحبـه أكثـر: غريـن بـاي باكـرز أو بيتسـبرغ سـتيلرز؟ فجـأة رنّ جـرس الهاتـف،

وأخبروه أنّ زوجته لم تكن على ما يُرام. خلع مئزره وركض إلى موقف السيارات، وحينما وصل إلى منزله، كانت الشرطة هناك بالفعل، وكان الجيران يقفون في الفناء، توجّه نحو المنزل، أرادت الشرطة معرفة اسمه، بالأحرى اسم أوبرا. كانت ميتة، لكنهم أرادوا معرفة اسمها، بالإضافة إلى نوع واسم الحبوب التي كانت تتناولها، ومنذ متى. كان يستطيع، من زاوية عينه، أن يرى جثتها مستلقية على السرير، سألوه إذا كان يريد أن يبقى وحيداً معها، فرفض... لقد فات الأوان! غادر الغرفة، مروراً بالجيران، الذين كانوا يقدمون تعازيهم.

توقفت شاحنة بيضاء، خرج منها رجلان ضخمان ودخلا المنزل، حملا جثة أوبرا داخل حقيبة سوداء إلى الشاحنة وغادرا، رحلت الشرطة، وعاد الجيران إلى منازلهم... ومرّت قطة عبر فناء المنزل.

30

ترتدي المافيا المكسيكية بدلة يميل لونها بين الأخضر والأصفر الليموني، أمّا بالنسبة لعصابة اللورايدرز، فهي بنفسجية. أمّا الفتيات الحوامل، فيبلغن من العمر خمس عشرة سنة، ويرتدي الكهنة أثواباً سوداء، ويردّدون الصلاة الكاثوليكية عبر الجوقات. تدقّ أجراس الكنيسة في منتصف النهار، بينما كان جاي متوجهاً إلى العمل في قسم الأطعمة الجاهزة. يسألونه، أيّ الفريقين يفضّل، جرين باي أو بيتسبرغ ستيلرز؟ كم عمره؟ ومن أين أتى؟ كان يكرّر: من الساحل الشرقي!

يعـود جـاي إلـى المنـزل، يسـير قليـلاً إلـى الأمـام ثـم ينـزل. يبـدوا أنـه يحمـل كيسـاً كبيـراً مـن طعـام القطـط علـى ظهـره، أتـى بـه مـن قسـم الأطعمـة الجاهـزة. هنـاك قطـط بريّـة فـي جميـع أنحـاء الحـيّ، بعضهـا صغـار. يحمـل طعـام القطـط علـى الرصيـف، ثـم يعـود إلـى منزلـه بالكيـس فارغـاً. يغلـق البـاب، ويجـرّ كرسـياً أمـام النافـذة، يتطلّـع ويـرى القطـط القادمـة مـن جميـع الاتجاهـات. تشـرع القطـط فـي تنـاول طعامهـا، لكنهـا تبقـى علـى أهبّـة الاسـتعداد. مـن الجانـب الآخـر مـن الشـارع، يـرى جـاي كلبيـن رماديين يتوجّهـان مباشـرة إلـى القطـط وهـي منهمكـة فـي الأكل، والـكلاب تتقـدّم... تقفـز القطـط وتنـطّ الـكلاب... ويتبعثـر كلّ شـيء.

فـي سـماء شـارع أيـرون، تلمـع الشـمس أثنـاء الغـروب بنـور ذهبـي رائـع، أكثـر ممـا تصـوره الإسـبان... السـماء ذهبيـة فعـلاً.

31

نحن الآن في زوكالو، البلدة الصغيرة النائية في شمالي كاليفورنيا، حيث ينتظر العمال المهاجرون في الزوايا، ويختبئون من الجنود بارتدائهم ملابس داكنة اللون، ويتسلّل هؤلاء عبر الشجيرات، ليتأكّدوا أنّه ليس هناك من يتكلّم عن الرئيس عبثاً، وأنّه لا وجود لخطط محدّدة لإسقاط بنايات، أو للاستيلاء على أحد البنوك. ينصتون باهتمام كبير للأفعال الإسبانية، التي يستعملها المهاجرون أثناء حديثهم، لكنهم نسوا كيف تُصرّف، وتمنّوا أنهم قد أنهوا دراستهم في الطور الابتدائي.

ما بطاقة الإقامة الدائمة بالضبط؟ هل تسمح لحاملها بالعمل؟ أو بالحصول على الجنسية؟ أو السفر بِحُرية؟ هل يعني امتلاكها أنه يُمنع عليك تسلق الجدار؟ أو يُمنع عليك حفر نفق؟ هل يعني ذلك أنه لا داعي للقلق حول مكان ازدياد والدتك أو أبوك؟ وهل يعني أننا سنفهم حديث الرجال الذين يتحدثون بلغة أجنبية في الركن هناك؟ هل سنحاول أن نفهم من أين أتوا؟... ربما جاؤوا بطريقة غير متوقعة.

كانت هناك شاحنات عليها رجال ملثمون، يبحثون عن المهاجرين من جميع الجنسيات، وعن أعداء الشعب وراء المقاهي، وخلف محلّات الأحذية ومصانع النبيذ. يخبرون زعماءهم أنّ في زوكالو كلّ شيء هادئ ومسالم.

32

لا أدري كيف وَضع حدّاً للرتابة كي يخبرك الحقيقة، إنه يختبئ بين الشجيرات لأيام عديدة، ويعيد الكَرّة كلّ مرة، لا بدّ أن يكون شيء ما تغيّر من الداخل، إلّا أنه يبقى من الخارج ثابتاً إلى حدٍّ ما. ربما بإمكاننا أن نصبح أصدقاء، أو إذا جلستُ هنا لفترة طويلة نسبيّاً، سيأتي ورائي، لستُ مضطراً لرؤية وجهه، على أيّة حال، أنا مسترخٍ الآن، كالصَدَفة أو البيضة المصنوعة من الشوكولاتة والمجوفة من الداخل. ربما يمكننا أن نستهلّ الحديث، إنه ينتظر هو كذلك، قد يكون لديه شيء ليقوله، من شأنه أن يوضّح الأمور

لكلانـا، مثـلاً: هـل تـمّ توظيفـه لـدى شـركة كبيـرة؟ أو لـدى الحكومـة؟ أم أنـه مجـرّد متطفّـل! لمـاذا يهتـمّ بحزنـي؟ ليـس حزنـي فقـط، أقصـد حزنـه كذلـك ومأسـاة الآخريـن. الأمـر ذاتـه يتكـرّر!... لمـاذا لا يقـول شـيئاً؟ ولـو بخصـوص الطقـس؟ لمـاذا لا يتحـدث معـي؟ أنـا شـخص محبـوب بطبعـي!

... تحطّ فراشة بيضاء على زهور أرجوانية، وحشـرات فـوق العشـب المقطـوع، وأزهـار تتفـرع مـن شـجيرة المغنوليـة، وزهـر الأقحـوان، والكثيـر مـن حبـات الطماطـم.

إنّ مـا يجـري حولـك، هـو مـا يدفعـك إلـى الأسـفل، وهـذا مـا يجعلـك تشـعر كمـا لـو أنـك لـن تتغلـب عليـه أبـداً، أو بالأحـرى، أنـت لـن تتغلـب أبـداً عليـه!

لا أعلـم مـا هـذه الرتابـة، ومـا سـرّ هـذا

التشـابه؟ لا بـدّ أنـه يشـعر بالإحسـاس ذاتـه، لا أدري لمـا يطاردنـي يومـاً بعـد يـوم، إنـه يحـدّق فـي الحشـرات التـي تمرّ عبـر الجـزء العلـوي مـن العشـب المقطـوع، الـذي يتسـاقط بيـن الحيـن والآخـر علـى كرسـي الحديقـة. مـا الـذي يمكـن أن يُفتـن بـه؟ وهـل يخصّنـي الأمـر؟ ربمـا لـم يكن مفتونـاً، بـل علـى عكـس ذلـك تمامـاً. بالمناسـبة، مـا عكـس كلمـة افتتـان؟... أن يكـون الإنسـان متورّطـاً جـدّاً فـي التفكيـر.

إنّـه يسـتمر فـي التحديـق إلـى الشـيء نفسـه كلّ يـوم، وكلّ شـهر، ولا تـزال الفراشـات تحـطّ علـى النباتـات البنفسـجية.

33

فـي بعـض الأحيـان يقـوم بتحريـك رأسـه بعنـف نحـو الجهـة الأخـرى، كمـا لـو أنّ حشـرة مـا تزعجـه، وتحـاول أن تدخـل فـي منخـاره، غيـر أنهـا ليسـت حشـرة علـى الإطـلاق، بـل الشـعر المنسـاب علـى وجهـه، أو بالأحـرى، الشـعر الـذي يتخيّلـه، أو يحـاول أن يبعـده علـى وجهـه. يهـزّ رأسـه، تقـف واحـدة مـن أخواتـه، وتمشّـط شـعره بمشـط ذي أسـنان بلاسـتيكية صغيـرة، وتسـتخدم مثبـت شـعر خاصّـاً بالنسـاء، للحفـاظ علـى هـذا الشـعر الوهمـي، ومحاولـة منـه ألّا يشـمّ رائحتـه، يسـدّ أنفـه، أو يحـاول أن يسـدّه. لديـه أيضـاً هـذه الحركـة الغريبـة، حيـث

يهتـزّ للأمـام والخلـف، ويمسـك بكلتـا يديـه معـاً، كأنّـه يصلّـي، ثـم يرفـع ذراعيـه مـن المرفـق إلـى المعصـم، ويرتكـز بمرفقيـه علـى بطنـه، ثـمّ يرفـع يديـه إلـى وجهـه، مسـتخدماً ركبتـه اليسـرى بطريقـة مرتجّـة، حيـث يدفـع سـاقه بذراعيـه نحـو وجهـه، ثـم يقـوم ببسـاطة، بحكّـة فـي شـفته العليـا، أو منخـاره الأيسـر، أو شـيء مماثـل. مـن الواضـح أنّ منخـار أنفـه يحـاول إخبـاره بشـيء مـا... إخبـاره أنّ الأمـور قـد تغيـرت.

كِلَا الحاجبيـن! كَلّاَ! أقصـد الأيسـر فقـط... الأيسـر... هـذا كلّ شـيء! الحمـد للـه، لقـد تغيّـرت الأمـور مـرّة أخـرى، عليـه أن يسـأل أشـخاصاً آخريـن، لا يمكِنـه الاسـتغناء عـن النـاس!

هـل يمكنـك أن تتخيـل مثـلاً، أنَّ شـيئاً مـا يزحـف داخـل أذنـك؟ مـن السـهل تخيّـل شـيء

مـن هـذا القبيـل، ثـم تشـعر بحكـة، أو شـيء مـا يزحـف بيـن شـعركَ. هـل هنـاك شـيء يزحـف فـوق شـعري؟ هـل هنـاك نملـة أو دودة أو ذبابـة، أو أيّ نـوع مـن الحشـرات المجنّحـة؟ هـل هـي بعوضـة؟ المهـم، هـي حشـرة ذات أطـراف عـدّة، تبحـث داخـل فـروة الشـعر عـن شـيء وهمـي!

سـتتخيّل، ثـم تسـتمر فـي توهّـم الحكـة، وتشـعر بهـا حقـاً بعـد ذلـك، وسـرعان مـا تطلـب المسـاعدة.

34

يفتح السائق باب الليموزين، تنزل قدم ترتدي صندلاً يعتليه قميص أزرق يتدلّى. يقترب ببطء من العيادة بمساعدة مشايّة، لقد كان ينتظر هذه اللحظة منذ تشخيص حالته، يعبر رمال الحدائق المنحوتة، وفجأة، ظهرت أفعى جرسية خضراء من مكان ما، ولدغت كاحله. سقط أرضاً متخبّطاً في الرمال كالحمار الجريح، لا يعرف السائق كيف يتصرف بالضبط! تهرع الممرضات من العيادة، الجميع حائر، يصرخ: «النجدة!» ثم يفقد الوعي.

تقابله صورة الشقيقين اللذين أسّسا أشهر عيادة في العالم، وهما يرتديان الأحذية الشتوية الخاصة بالثلوج.

35

جميع أنواع الأحاسيس تنتابني الآن، أرغب مثلاً في معرفة ما إذا كان هناك وكيل عقارات أتعاون معه، بغية الحصول على المنزل المجاور له، سواء كان هذا المنزل للبيع، أم لا. عليّ الاتصال بالسيدة المسؤولة عن الضرائب، وبمكتب الحجز الخاص بي، لا بدّ أن أحصل على هذا البيت، بالإضافة إلى جميع مستحقّاتي.

الآن، يجب أن أتوصّل إلى النظر عبر النوافذ، لأرى ما إذا كان يركن في سريره ليلاً، وهل يستيقظ بمفرده في الصباح أم لا؟

وهـل يرتّـل صلواتـه، ويسـتعمل اسـم الـربّ؟ هـل يرتّـل الصـلاة قبـل وجبـات الطعـام؟ هـل يؤمـن بالحيـاة الآخـرة؟ هـل يسـاعد فـي تحضيـر الأطبـاق؟ هـل يأخـذ اسـتراحة؟ أو يتنـاول الصحيفـة مباشـرة؟ هـل يقـرأ العناويـن؟ هـل يقـرأ أحدهـم العناويـن الرئيسـة لـه؟ لا بـدّ لـي مـن مراقبتـه لمـدة 24 سـاعة.

يجـب أن أعـرف مـن أيـن أتـى، وإلـى أيـن هـو ذاهـب، ومـا الـذي يرغـب فـي تحقيقـه، ومـا سـرّ علامـة المعاقيـن الزرقـاء فـي سـيارته البيضـاء، هـل قـام بصنعهـا بطريقـة مـا؟ أو حصـل علـى واحـدة مـزوّرة؟ هـل وقـع لـه أيّ سـوء؟ أو أنـه يتظاهـر؟ وإذا كان فعـلاً يتظاهـر، هـل يجـب أن أتصـل بـه؟ هـل علـيّ أن أسـير علـى الشـرفة الأماميـة، وأطـرق البـاب الأمامـي؟ وأقـدّم لـه أوراق اعتمـادي؟ هـل أتهجـم عليـه وأوبّخـه؟ أو يجـب أن أتـرك كلّ شـيء يمضـي لحالـه.

36

قبل عام واحد، كان يمكنه سماع سقوط حبات الجوز، وصوت سحقها، ثمّ يداعب كلبته «كاتاهولا»، التي أنجبت عدّة جِراء، والتي أصرّ ابنه الأصغر على الاحتفاظ بها.

قبل عام واحد بالضبط، كان بإمكانه قيادة السيارة عبر الانقسام القاري لأمريكا الشمالية، والسياقة على الشريط الساحلي الوعر، كما كان بإمكانه أن يسلك طريق الصحراء.

قبل عام واحد بالتّمام والكمال (لا أكثر ولا أقلّ)، كان بإمكانه السير مرفوع الرأس، والمضي قُدُماً، والاعتماد على نفسه.

37

في شرق شارع واتر، لا أدري إن تأخّر الوقت كثيراً، أو كان مبكراً نسبياً، عندما غادرنا، أدري أنّ البدر لم يكن قد ارتفع بعد، أظن أنّ الساعة كانت تشير إلى 6:30 أو 7. كنت أجلس على كرسيّ متحرك، يغطي مقعده جلد أشعث، وبطانية نافاجو تغطّي ركبتيَّ، وكان ابناي جيسي ووكر، يدفعان بي من الجانبين، باتجاه وسط شارع واتر. لن أنسى أبداً القوة التي شعرتُ بها خلفي، بينما تحولنا أنا وابنتي هانا وصديقتَيْها وأخواتي وزوجة ابني (كنّا تسعة أفراد في المجمل)، إلى يمين كنيسة ذات ثلاثة طوابق من اللوح الخشبي، وكانت

تقابلها شجرة صنوبر ضخمة، ثم أخذ الظلام في التبدّد.

بدأ القمر ببطء يتصدّر كبد السماء، وصلنا إلى مطعم مكسيكي يدعى الفروليتو، دفعوا بي الكرسي المتحرك، ودخلنا من خلال بابين متأرجحين إلى غرفة ضخمة، صخب متصاعد، وأصوات محادثات وقهقهات، وصوت تحطيم الكؤوس، وخشخشة طواقم الفضة، وأناس يصرخون ليسمعهم الآخرون.

الآن، نحاول الخروج من خلال الحشد إلى الحانة، في الجزء الخلفي من المطعم. كان هناك فولاذ مصقول للغاية، جدارية من الصفوف اللاّمتناهية من الصبار الأزرق، الذي يزرع لصنع التكيلا وشراب الماسكال. على الرفوف الفضية الطويلة والضيقة المثبتة على الجدار، صُفّت عبوات التكيلا بلمسة

فنيـة، وكان عليهـا: الهورنيتـوس، الكابوفابـو، السـاوزا، الباتـرون، للكويرفـو، الهيـرادورا... وفـي الأخيـر، طلبـوا المارغريتـاس. جلسـت ابنتـي هانـا وصديقاتهـا مولـي وتشـاد، وزوجـة جيسي، بالإضافة إلى مورا وأخواتي روكسان وساندي، حول الطاولـة، وأخذ حجم الكرسي المتحرك مكانيـن تقريباً. طلبتُ طبق انتشيلادا بلحـم البقـر، وشـراب الكابوفابـو. كانـت علـى قائمـة المأكـولات علامـة منـارة. لا أتذكـر بالضبـط مـا تحدثنـا عنـه، ربمـا بخصـوص ترامـب، أو أزمـة البلـد مـع المكسـيك، أو عـن الـكلاب وسـلالة الكتاهـولا بالأخـص، أو عـن الصيـد كالعـادة. المشـكلة كانـت فـي أصـوات المحادثـات المتداخلـة، الطاولـة بكاملهـا تعـجّ بالأصـوات، وأصبحنـا الآن مثلهـم... كأننـا شـريط مثـل فرقـة الماريمبـا دون الموسـيقى، الكثيـر مـن الضوضـاء، والكثيـر مـن التكيـلا.

كانت مجموعتنا كلّها، أو بالأحرى فرقتنا الصغيرة، تمضي نحو الشارع. أتذكر جيداً كيف كنت عاجزاً وأضعف من أبنائي. رجل يدفعه أبناؤه في كرسي متحرك، من مطعم مزدحم إلى شارع لا يوجد أحد فيه، رجل يجلس على صوف أشعث، ببطانية نافاجو تغطي ركبتيه.

يزداد حجم القمر ولمعانه، يسلّط ضوئه علينا. ابنان ووالدهما، كل واحد يتعقّب خطى الآخر، ثمّ يصعدان إلى منتصف شرق شارع واتر، والقمر لا يزال متوهّجاً. لقد فعلناها وتعثرنا في السلالم، أو أنا من تعثرتُ. ابناي لم يتعثرا، وأنا تعثرت.

بدأ سام شيبرد العمل على Spy of the First Person سنة 2016. كتب مسوداته الأولى بخط يده، لأنه لم يعد قادراً على استخدام الآلة

الكاتبة، بسبب مضاعفات مرض التصلب الجانبي الضموري. وعندما أصبحت الكتابة اليدوية مستحيلة بالنسبة له، قام بتسجيل أجزاء من الكتاب، والتي تكفّلت عائلته بنسخها. لقد أملى الصفحات المتبقية، عندما أصبح التسجيل صعباً للغاية. ساعده صديق الأيام الخوالي، باتي سميث Patti Smith، في كتابة الرواية. راجع سام المؤلَّف مع عائلته، ووضع تعديلاته النهائية قبل بضعة أيام من وفاته، في 27 يوليو 2017.

شكر وتقدير

تـود هانـا ووكـر وجيسـي، التوجّـه بالشـكر لأخـوات سـام: روكسـان وسـاندي، علـى حبهـن ورعايتهـن لأبينـا، ومسـاعدتهن التـي لا تقـدر بثمـن، فـي إتمـام هـذا الكتـاب.

المؤلف

حاز **سام شيبرد** على جائزة بوليتزر لأكثر من خمس وخمسين مسرحية، وثلاث مجموعات قصصيّة. بصفته ممثلاً، ظهر في أكثر من ستين فيلماً، وترشّح لجوائز الأوسكار سنة 1984، عن فيلم «ذا رايت ستاف The Right Stuff». وصل إلى الدور النهائي لجائزة ويليام سميث W. Smith الأدبية، عن مجموعته القصصية «غريت دريم أوف هيفن Great Dream of Heaven»، ثم حصل على الدكتوراه الفخرية من كلية ترينيتي في دبلن سنة 2012. كان شيبارد عضواً في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، وحصل على

الميداليـة الذهبيـة للدراما مـن الأكاديميـة ذاتهـا، وأصبـح عضـواً فـي المسـرح الأمريكـي «مسـرح هـول أوف فيـم Theater Hall of Fame».

وافته المنّية سنة 2017.